حكايات الشعوب

الفراشة الصفراء

وحكايات أخرى
من إفريقيا



عبد التواب يوسف
رسوم : رأفت محيى الدين

سفير



حكايات الشعوب
Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com
الفراشة الصفراء
وحكايات أخرى
من
إفريقيا
عَبد التّواب يُوسُف
رسُوم
رَأفَت مُحيي الدّين

الشَّمْسُ والْقَمَرُ

فِى الْمَاضِى الْبَعِيدِ ، الْبَعِيدِ جِدّاً ، كَانَتِ « الشَّـمْسُ » تَعِيشُ عَلَى الأَرْضِ ، مِثْلَمَا يَعِيشُ عَلَيْهَا «الْبَحْرُ» . وَقَـدْ تَـعوَّدَتِ الشَّمْسُ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ عَلَى زِيَارَتِه ، وَرُبَّمَا أَطَالَتِ الْمُكُوثَ لَدَيْه، تَتَبَادَلُ مَعَهُ الْحَدِيثَ الْمُمتِعَ ، وَيَتَنَاقَلانِ أَخْبَارَ هَذَا الْكَوْنِ الَّذِى كَانَ مَا يَزَالُ وَلِيداً صَغِيراً ، لَكِنَّهَا تَنَبَّهَتْ إِلَى أَمْرٍ صَارَحَتْ بِهِ صَدِيقَهَا الْبَحْرَ :

- لَقَدْ تَكَرَّرَتْ زِيَارَتِى لَكَ !

- إِنَّهُ كَرَمٌ مِنْكِ بِدُونِ شَكٍّ !

- لَكِنَّكَ لَمْ تَرُدَّ الزِّيَارَةَ قَطُّ .

- ظُرُوفِى تَمْنَعُنِى مِنْ ذَلِكَ ، مَعَ الأَسَفِ الشَّدِيدِ !

- أَىُّ ظُرُوفٍ تَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ ؟ .

- إِنَّنِى كَبِيرٌ وَاسِعٌ مُتَـرامِى الأَطْرَافِ ، ثُمَّ إِنَّ عِنْدِى أَبْنَاءً وَأَحْيَاءً وَمَخْلُوقَاتٍ كَثِيرَةً ؛ مِنْ حِيـتَانٍ وَأَسْمَاكٍ وَطُيُورٍ وَسِبَاعٍ ، وَ . . . لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتْرُكَهَا ، كَمَا أَنَّ بَيْتَكِ لا يُمْكِنُ أَنْ يَسَعَهَا .

قَالَتِ الشَّمْسُ :عُذْرُكَ هَذَا مَقْـبُولٌ ، وَلَيْسَ أَمَامِى إِلا أَنْ أَقُومَ بِبِنَاءِ بَيْتٍ كَبِيرٍ ضَخْمٍ ، يَتَّـسِعُ لِلأَصْدِقَاءِ الْقَادِمِينَ لِزِيَارَتِى ، بِأَعْدَادٍ كَبِيرَةٍ ؛ وَبِذَلِكَ لا يَكُونُ لَكَ عُذْرٌ تُبَرِّرُ بِهِ عَدَمَ زِيَارَتِكَ لِى .

قَالَ الْبَحْرُ : شُكْراً عَلَى دَعْوَتِكِ الْكَرِيمَةِ ، وَلا بُدَّ أَنْ نُلَبِّيَهَا ، وَنَسْعَدَ بِوُجُودِنَا فِى قَصْرِكِ الْكَبِيرِ .

بَدَأَتِ الشَّمْسُ تَبْنِى الْبَيْتَ ، يُعَاوِنُهَـا فِى ذَلِكَ الْقَمَرُ ،زَوجُهَا الْمُخْلِصُ ، وَكَانَا يَرْغَبَـانِ فِى أَنْ يَزُورَهُمَا «الْبحرُ» وَأَعْوَانُهُ وَأَصْـحَابُهُ ؛ لِذَلِكَ قَامَا مَـعًا يُشَيِّـدَانِ بَيْتًا كَبِـيرًا مُتَّسِـعًا ؛ كَىْ يَسْتَـقْبِلا فِيـهِ الضَّيْفَ وَأَتْبَاعَهُ ، كَـالْحُوتِ وَالدَّرْفِيلِ، ثُمَّ قَدَّمَا لَهُ الدَّعْوَةَ ؛ لِيَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمَا بِالزِّيَارَةِ ، فَسَأَلَ :

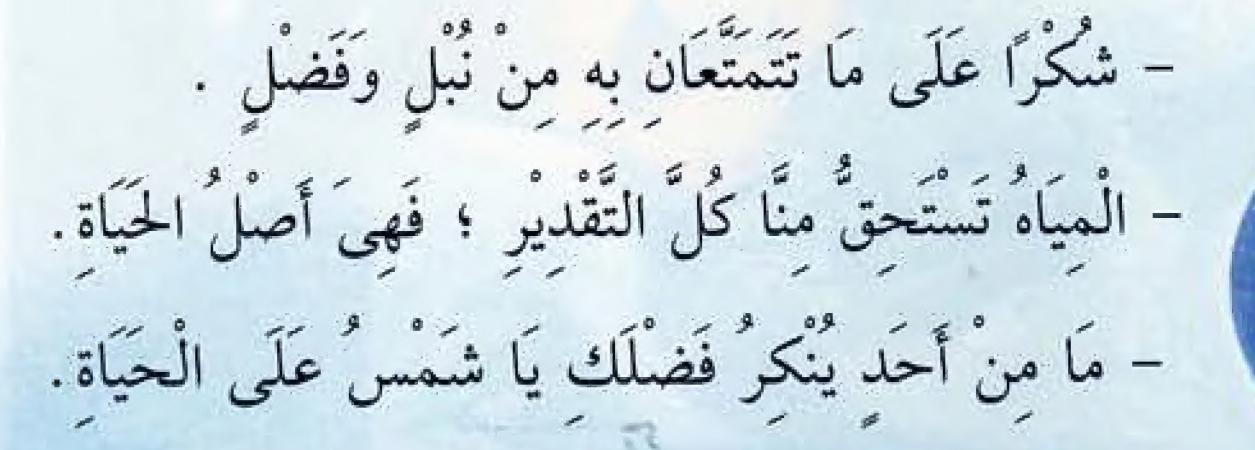
- هَلِ الْبَيْتُ آمِنٌ ، وَيَكْفِينَا ؟

- نَعَمْ .

- شُكْرًا عَلَى مَا تَتَمَتَّعَانِ بِهِ مِنْ نُبْلٍ وَفَضْلٍ .

- الْمِيَاهُ تَسْتَحِقُّ مِنَّا كُلَّ التَّقْدِيرِ ؛ فَهِىَ أَصْلُ الْحَيَاةِ.

- مَا مِنْ أَحَدٍ يُنْكِرُ فَضْلَكِ يَا شَمْسُ عَلَى الْحَيَاةِ.





- هيَّا ، تعَالَ يَا بَحْرُ ، إِنَّنا فِى انْتظَارِكَ .

وَتبْدأُ الْمِياهُ فِى التَّدفُّقِ ؛ أَمْواجًا إِثْرَ أَمْـواجٍ ، حَاملَةً معَهَا كُلَّ الأَحْـيَاءِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الَّتِى تَعِـيشُ فِى الْبَحْرِ ؛ لِتَدْخُلَ بَيْتَ الشَّـمْسِ وَالقَمَرِ ، وَأَخَـذَتْ تَعْلُو .. وَتَعْلُو .. وَتَعْلُو ، حَتَّى مَـاعَادَ هُنَاكَ مَكَانٌ لِصَـاحِبَى الْمَنْزِلِ ؛ لِذَلِكَ أَخَذَا يَصْعَدَانِ إِلَى سَطْحِ الْبَيْتِ ، وَهُمَا خَجُولانِ ، فَمَا كَانَا يَتَصَوَّرَانِ أَنْ يَضِيقَ بِهِمَا الْبَيْتُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ .

وَبَدَأَتِ الْمِيَاهُ تَغْـمُرُ كُلَّ أَرْجَاءِ الدَّارِ ، وَوَصَلَتْ سَقْفَهُ وَتَجَـاوَزَتْهُ ارْتِفَاعًا إِلَى السَّطْحِ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَـرُ يُرَحِّبَانِ بِالْوَافِدِ الضَّيْفِ ، وَاضْطُرَّا إِلَى مُغَادَرَةِ الْمَكَانِ وَالصُّعُودِ إِلَى أَعْلَى .. إِلَى أَعْلَى .. إِلَى أَعْلَى .

لَمْ يَعُدْ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مَكَانٌ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ ؛ لأَنَّ الْبَحْرَ احْـتَلَّ بَيْتَهُمَا ، رَغْمَ اتِّسَـاعِهِ ، وَسَكَنَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فِى السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ ، وَاسْتَقَـرَّا فِيهَا ؛ لِيَتَطَلَّعَ إِلَيْهِمَا النَّاسُ ، وَلِيَتَذَكَّرُوا مَدَى كَرَمِهِمَا وَجُودِهِمَا .

وَكَانَتِ الشَّـمْسُ خِلالَ النَّهَارِ تَفْـرِشُ مِيَاهَ الْبَـحْرِ بِنُورِهَا ، وَتَمُـدُّهُ بِالدِّفْءِ وَالْحَرَارَةِ ، وَكَـانَتْ هَذِهِ بِدَوْرِهَا تَقُـومُ بِتَحْـوِيلِ بَعْضِ الْمِـيَاهِ إِلَى بُخَارٍ يَصْعَـدُ إِلَى أَعْلَى لِرَغْبَتِـهِ فِى زِيَارَةِ الشَّمْسِ ، حَيْثُ هِىَ فِى سَمَائِهَا .

وَكَانَ الْقَـمَرُ لَيْلا يُغَطِّى سَطْحَ الْمِيَـاهِ بِضَوْءٍ فِضِّىٍّ جَمِيلٍ ، يَلْمَعُ وَيَتَأَلَّقُ ، وَكَانَ الْبَحْرُ بِدَوْرِهِ يَعْكِسُ هَذَا الضِّيَاءَ لِيَتَجَمَّلَ بِهِ كَوْكَبُ الأَرْضِ كُلُّهُ .

إِنَّ الصِّلَةَ بَيْنَ الْبَحْرِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَمْ تَنْقَطِعْ قَطُّ مُنْذُ صُعُـودِهِمَا إِلَى السَّـمَاءِ . لَقَـدْ بَقِيَتْ عَلاقَةُ الصَّدَاقَةِ قَائِمَةً أَبَدَ الآبَادِ .

وَيَقُولُ الأَفَارِقَةُ :

إِذَا كَـانَ هَذَا يَحْـدُثُ بَيْنَ هَذِهِ الْجَمَادَاتِ ، فَـيَجْدُرُ بِهِ أَنْ يَقَعَ بَيْنَ الْبَشَرِ ، أَصْحَابِ الْعُقُولِ الذَّكِيَّةِ !



الْكُلُّ يَتَكَلَّمُ

الْوَقْتُ : صَيْفٌ .

الشَّمْسُ تُرسِلُ أَشعتَهَا النَّارِيَّةَ عَلَى الْحَقْلِ الصَّغِيرِ ، وَصَاحِبِه ، وقَدْ أَخَذَ يَحْفِرُ الأَرْضَ بِفَأْسِه ؛ لِيُيَسِّرَ لِنَفْسِه اقْتِلاعَ الْبَصَلِ وَالْجزَرِ ، وكَانَ قَدْ نَسِيَهُمَا طَوِيلا ، ولَوْلا عِنَايَةُ السَّمَاءِ بِهِمَا ومَا بَعَثَت بِه مِنْ غَيْث ، مَا نَبَتَا ، وأَطَلَّتْ شَوَاشِيهِمَا الْخضْرَاءُ مِنْ بَاطِنِ التُّرْبَة . لَقَدْ غَفَلَ عَنْهَا ، ولَمْ يُنَقِّ مِنْ حَوْلِهَا الْحَشَائِشَ الْعَشْوَائِيَّةَ الْبَرِّيَّةَ الَّتى قَاسَمَتْهَا طَعَامَهَا وَضَوْءَ الشَّمْسِ ، وَمَا إِنْ فَتَّحتِ الْجزَرَةُ عَيْنَيهَا عَلَى النُّورِ، حَتَّى قَالَتْ لَهُ مُعَاتِبَةً :

- آهْ . . هَا قَدْ تَذَكَّرْتَنَا أَخيرًا . جِئْتَ لِلْحصَادِ !

تَلَفَّتَ الْفَلاحُ مِنْ حَوْلِه بَاحِثًا عَمَّنْ يَتَكَلَّمُ ، فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا؛ فَازْدَادَ دَهْشَةً عَلَى دَهَشِه ، وَتَطَلَّعَ إِلَى الْبَقَرَةِ الَّتى كَانَتْ تَقِفُ بِجَانِبِه وَهِىَ تَجْتَرُّ طَعَامَهَا ، وَسَأَلَهَا :

- هَلْ أَنْتِ الَّتى تَكَلَّمْتِ ؟

لَمْ تَرُدَّ الْبَقَرَةُ ؛ فَقَدْ كَانَ فَمُهَا مُمتَلِئًا بِالطَّعَامِ ، وَقَدْ دَرَّبَتْ نَفْسَهَا عَلَى أَلا تَتَكَلَّمَ أَثْنَاءَ ذَلِكَ ؛ إِذْ يَتَطَايَرُ مِنهَا رَذَاذٌ يُصِيبُ مَنْ حَوْلَهَا ، لَكِنَّ صَوتًا ارْتَفَعَ ؛ لِيَرُدَّ عَلَى الْفَلاحِ قَائِلا :

لَمْ تكُنِ الْبَقَرَةُ هِىَ الْمُتَحَدِّثَةَ إِلَيْكَ ، وَإِنَّمَا هِىَ الْجَزَرَةُ الَّتِى اقْتَلَعْتَهَا مِنَ الأَرْضِ .

نَظَرَ الفَلاحُ مَصْعُوقًا إِلَى عَنْزَةٍ تَقِفُ بِجَانِبِ الْبَقَرَةِ ، وَسَأَلَهَا : هَلْ تَكَلَّمْتِ يَا عَنْزَتِى الْعَزِيزَةَ؟

- مَنْ تَظُنُّ تَكَلَّمَ غَيْرَهَا ؟

- الصَّوْتُ يَأْتِينِى الآنَ مِنْ أَعْلَى .

- نَعَمْ ، إِنَّهُ صَوْتِى أَنَا .

- مَنْ ؟ النَّخْلَةُ ؟

- إِنَّهَا أَنَا ، وَلا شَىْءَ غَيْرِى ، لَقَدِ اقْتَلَعْتَ جَرِيدِى أَمْسِ .

- كُنْتُ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ .

- ولَكِنَّكَ وَضَعْتَهُ مِنْ أَعْلَى ، فَكِدْتَ تَكْتُمُ أَنْفَاسِى .

- مَنْ تَكُونُ يَا مَنْ تَتَحَدَّثُ إِلَىَّ مِنْ عَلَى الأَرْضِ ؟

- أَنَا الْحَجَرُ .

- حَتَّى الْحَجَرُ يَتَكَلَّمُ ! وَالْجَمِيعُ يَلُومُونَنِى ؟ إِنَّنِى لَنْ أَبْقَى دَقِيقَةً وَاحِدَةً فِى هَذَا الْحَقْلِ الْمَسْحُورِ .

جَرَى الْفَلاحُ مُغَادِرًا الْحَقْلَ ، وَظَلَّ مُنْطَلِقًا بِأَقْصَى سُرْعَةٍ إِلَى أَنِ الْتَقَى مَعَ صَيَّادِ سَمَكٍ ، سَأَلَهُ :

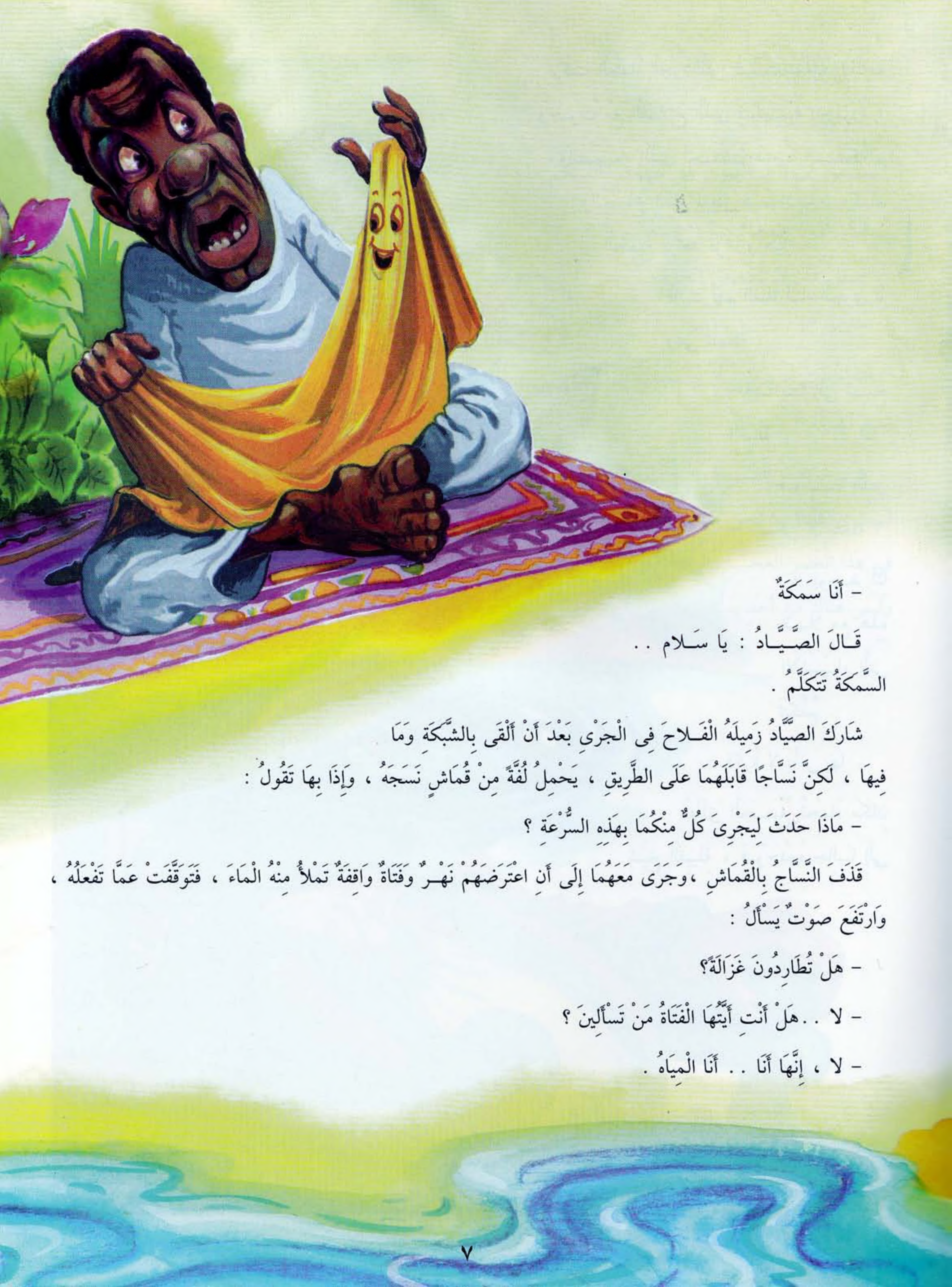
- لِمَاذَا تَجْرِى يَا عَزِيزِى ؟

- لَقَدْ تَكَلَّمَتِ الْجَزَرَةُ ، وَالْعَنْزَةُ ،وَالنَّخْلَةُ ، وَالْحَجَرُ نَطَقَ !

- وَأَىُّ شَىْءٍ فِى هَذَا ؟ إِنَّنِى - أَيْضًا - أَتَكَلَّمُ .

- مَنْ تَكُونِينَ ؟





- أَنَا سَمَكَةٌ

قَالَ الصَّيَّادُ : يَا سَلام ..
السَّمَكَةُ تَتَكَلَّمُ .

شَارَكَ الصَّيَّادُ زَمِيلَهُ الْفَلاحَ فِى الْجَرْىِ بَعْدَ أَنْ أَلْقَى بِالشَّبَكَةِ وَمَا فِيهَا ، لَكِنَّ نَسَّاجًا قَابَلَهُمَا عَلَى الطَّرِيقِ ، يَحْمِلُ لُفَّةً مِنْ قُمَاشٍ نَسَجَهُ ، وَإِذَا بِهَا تَقُولُ :

- مَاذَا حَدَثَ لِيَجْرِىَ كُلٌّ مِنْكُمَا بِهَذِهِ السُّرْعَةِ ؟

قَذَفَ النَّسَّاجُ بِالْقُمَاشِ ،وَجَرَى مَعَهُمَا إِلَى أَنِ اعْتَرَضَهُمْ نَهْرٌ وَفَتَاةٌ وَاقِفَةٌ تَمْلأُ مِنْهُ الْمَاءَ ، فَتَوَقَّفَتْ عَمَّا تَفْعَلُهُ ، وَارْتَفَعَ صَوْتٌ يَسْأَلُ :

- هَلْ تُطَارِدُونَ غَزَالَةً؟

- لا ..هَلْ أَنْتِ أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ مَنْ تَسْأَلِينَ ؟

- لا ، إِنَّهَا أَنَا .. أَنَا الْمِيَاهُ .

تركَتِ الْفتَاةُ الْجَرَّةَ الَّتى كَانَتْ تملؤُهَا بالْماءِ، وَجَرتْ مَعَ الْفَلاحِ الَّذى كَلَّمَتْهُ الْجَزَرَةُ ، وَالصَّيَّادِ الَّذى تَحَدَّثَتْ مَعَهُ السَّمَكَةُ ، وَالنَّسَّاجِ الَّذى نَطقَ قُمَاشُهُ . وكَانَ الْجَميعُ يرْتَعِدُ فزَعًا ورُعْبًا .

قَالَتْ لَهُمُ الْفَتَاةُ أَثْنَاءَ الْجَرْىِ ، وَهِىَ تَلْهَثُ :

- هَيَّا بِنَا إِلَى شَيْخِ الْقَبِيلَةِ .

- وَمَا الَّذى يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ ؟

- يُوجَدُ لَنَا حَلا مَعَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الَّتى تَتَكَلَّمُ .

- فِكْرَةٌ لا بَأْسَ بِهَا .



انْطَلَقَ الْجَمِيعُ تُجَاهَ مكَانِ شَيْخِ الْقَبِيلَةِ ، فَوَجَدُوهُ جَالسًا إِلَى مقْعَدٍ خشَبِىٍّ ضَخْمٍ .

قَالَ لَهُ الْفَلاحُ : الْجزرَةُ تكَلَّمتْ وَ . . .

وَقَالَ الصَّيَّادُ : وَالسَّمَكَةُ .

وَقَالَ النَّسَّاجُ : وَقِطْعَةُ الْقُمَاشِ .

وَقَالَتِ الْفَتَاةُ : وَالْمِيَاهُ فِى النَّهْرِ تكَلَّمَتْ أَيْضًا .

قَالَ شَيْخُ الْقَبِيلَةِ : هَذَا كَلامٌ خُرَافِىٌّ ،أَنْتُم تُرِيدُونَ أَنْ تُقْلِقُوا النَّاسَ بِحِكَايَاتِكُمُ الْكَاذِبَةِ ، وَتَرْغَبُونَ فِى إِزْعَاجِ السُّلْطَةِ .



- بَلْ لَقَدْ حَدَثَ هَذَا فِعْلا .

- وَنُؤَكِّدُ لَكَ ذَلِكَ .

سَمِعُوا صَوْتًا يَسْأَلُهُمْ : هَلْ سَمِعْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ هَذِهِ الأَصْوَاتَ ؟

قَالُوا فِى نَفَسٍ وَاحِدٍ : نَعَمْ .

- كُلُّ هَذَا لا يَسْتَدْعِى الْخَوْفَ .

- مَاذَا ؟!

- أَهُوَ شَىْءٌ غَرِيبٌ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْمَقْعَدُ الَّذِى يَجْلِسُ عَلَيْهِ شَيْخُ القَبِيلَةِ ؟

صَرَخَ شَيْخُ الْقَبِيلَةِ : خُذُونِى مَعَكُمْ ؛ لِنَجْرِىَ كُلُّنَا .. نَحْنُ مَسَاكِينُ .. كُلُّ شَىْءٍ فِى هَذَا الْعَصْرِ الْعَجِيبِ وَالزَّمَنِ الْغَرِيبِ يَتَكَلَّمُ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ أَحَدٍ يَسْمَعُ .

الْفَرَاشَةُ الصَّفْرَاءُ



عِنْدَمَا يَهْبِطُ اللَّيْلُ وَيَحُلُّ الظَّلَامُ ، تَقْعُدُ « أُوسَا » الصَّغِيرَةُ وَهِيَ تَعْقِـدُ يَدَيْهَا حَوْلَ رُكْبَتَيْهَا ، وَتَرْتَعِدُ مِنَ الْخَوْفِ وَالرُّعْبِ ؛ إِذْ تَتَخَيَّلُ الأَشْجَارَ شَيَاطِينَ ، وَتَتَصَوَّرُ الْغَـابَةَ مَلِيئَةً بِالْعَفَارِيتِ ، وَهِيَ تَظَلُّ فِي مَكَانِهَا هَذَا دُونَ حَرَكَةٍ ، وَلَا تُغَادِرُهُ إِلَى أَنْ تَنَامَ ، وَتَأْتِيَ أُمُّهَا ؛ لِكَيْ تَحْمِلَهَا إِلَى فِرَاشِهَا .

أَمَّا بِالنَّهَارِ فَهِىَ « عِـفْرِيتَةٌ » صَـغِيرَةٌ ، وَشَـيْطَانَةٌ شُجَـاعَةٌ ، تَجْرِى هُنَا وَهُنَاكَ ، تَتَـسَلَّقُ الأَشْجَـارَ ، وَتُمْسِكُ بِالْحَشَرَاتِ ، وَتَصْطَادُ الطُّيُورَ ، وَتُطَارِدُ الْحَيَوَانَاتِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ ، ضَلَّتْ « أُوسَا » طَرِيقَهَا أَثْنَاءَ عَوْدَتِهَا مِنَ الْغَابَةِ إِلَى الْبَيْتِ ، وَلَمْ يُفْلِحِ الْعِقْدُ الأَحْمَرُ الَّذِى أَهْدَتْهُ لَهَا أُمُّهَا فِى أَنْ يَبُثَّ فِى نَفْـسِهَا شَيْئًا مِنَ الشَّجَـاعَةِ ، أَوْ يُزِيلَ مِنْهَا الْجُبْنَ وَالْخَوْفَ ، وَظَلَّتْ تَسِيـرُ بَاحِثَةً عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِى يَقُودُهَا إِلَى مَنْزِلِهَا ، غَـيْرَ أَنَّـهَا لَمْ تَعْثُرْ عَلَيْهِ ، وَلَمَـحَتْ عَلَى الْبُعْدِ أَضْوَاءً تَنْبَعِثُ مِنْ فَـوْقِ شَجَرَةٍ ، وَعِنْدَمَا مَضَتْ نَحْوَهَا ، اكْتَشَفَتْ أَنَّهَا زُجَاجَاتٌ تَنْعَكِسُ عَلَيْهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ. قَالَتْ مُتَسَائِلَةً :

– أَتَكُونُ هَذِهِ « شَجَرَةَ الزُّجَاجَاتِ » الَّتِى سَمِعْتُ عَنْهَا ؟

إِنَّهُمْ كَثِيرًا مَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا وَعَنْ صَاحِبِهَا الْعَجُوزِ . هَلْ تَجِدُهُ هُنَاكَ وَيَدُلُّهَا عَلَى الطَّرِيقِ ؟

مَضَتْ نَحْوَ الشَّجَـرَةِ ، وَإِذَا بِهَا تَلْقَاهُ ، وَيَسْتَقْبِلُهَا قَائِلا :

– أَهْلًا يَا « أُوسَـا » هَلِ اجْـتَـذَبَـتْكِ الأَضْـوَاءُ كَالْفَرَاشَاتِ ؟

سَأَلَتْهُ « أُوسَا » : كَيْفَ عَرَفْتَ اسْمِى ؟

– إِنَّنِى أَعْـرِفُ الْكَثِيـرَ عَنْكِ .

–وَأَنَا أَيْضًا سَـمِعْتُ أَنَّ لَدَيْكَ أَعْـشَـابًا تَشْـفِى مِنَ الأَمْرَاضِ ، كَمَـا أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى تَفْسِيرِ الأَحْلَامِ .

– هَذَا مَا يَقُولُهُ النَّاسُ، هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تُسَاعِدِينِى فِى فَرْشِ هَذِهِ الأَعْـشَابِ ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَجِفَّ ؟



- يَسُرُّنِى ذَلِكَ كَثِيرًا .

أَخَذَتْ « أُوسَا » تُعَاوِنُ الرَّجُلَ الْعَجُوزَ ، وَظَلَّتْ تَعْمَلُ طَوِيلا دُونَ أَنْ تَتَنَبَّهَ إِلَى أَنَّ الشَّمْسَ تَقْطَعُ رِحْلَتَهَا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ بِسُرْعَةٍ ، وَقَدْ نَسِيَتْ ذَلِكَ ؛ لأَنَّهَا أَخَذَتْ تَتَبَادَلُ الْحَدِيثَ مَعَ الرَّجُلِ الْعَجُوزِ، وَقَدَّمَ لَهَا بَعْضَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ،وَشَعَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالتَّعَبِ ؛ فَجَلَسَتْ لِتَسْتَرِيحَ ، وَإِذَا بِهَا تَغْفُو وَتَنْعَسُ ،فَحَمَلَهَا الْعَجُوزُ إِلَى الْفِرَاشِ .وَعِنْدَمَا اسْتَيْقَظَتْ قُرْبَ الظُّهْرِ قَالَ لَهَا :

- لَقَدْ أَدَّيْتِ عَمَلَكِ فِى بَرَاعَةٍ ، وَكُنْتِ شُجَاعَةً وَأَنْتِ تَتَسَلَّقِينَ السُّلَّمَ ، وَتُسْنِدِينَهُ إِلَى الأَشْجَارِ ؛ لِقَطْفِ أَوْرَاقِهَا!

- إِنَّنِى شُجَاعَةٌ بِالنَّهَارِ ، رِعْدِيدَةٌ بِاللَّيْلِ .

- أَنَا - أَيْضًا - أَخَافُ الْغَابَةَ لَيْلا .

- هِىَ تُخْفِى أَشْيَاءَ كَثِيرَةً مُزْعِجَةً ؛ إِذْ تَتَجَوَّلُ فِيهَا الْحَيَوَانَاتُ وَتُحَمْلِقُ فِىَّ بِعَيْنَيْهَا ، وَالشَّرَرُ يَنْبَعِثُ مِنْهُمَا .

ابْتَسَمَ الْعَجُوزُ وَهُوَ يَقُولُ لَهَا :

- هَلْ تَرَيْنَ هَذِهِ الْفَرَاشَةَ الصَّفْرَاءَ ؟

- نَعَمْ ، إِنَّهَا جَمِيلَةٌ جدا !

- وَصَغِيرَةٌ جدا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِىَ تُحَلِّقُ ، وَتَطِيرُ ، وَلا تَخْشَى السُّقُوطَ وَالْوُقُوعَ عَلَى الأَرْضِ .

تَطَلَّعَتْ إِلَيْهَا « أُوسَا » وَهِىَ تَقُولُ :

- لا بُدَّ أَنَّ فِيهَا «سرا» مَا .أَنَا شَخْصِيا لَيْسَ عِنْدِى جَنَاحَانِ أَطِيرُ بِهِمَا ، وَأَهْرُبُ مِنَ الْخَوْفِ .

- يَجْدُرُ بِكِ أَنْ تَجِدِى سَبِيلا لِلتَّغَلُّبِ عَلَيْهِ وَمُوَاجَهَتِهِ .

- إِنَّنِى أَتَمَنَّى ذَلِكَ . لَيْتَكَ تُسَاعِدُنِى !

- رَاقِبِيهَا . . تَابِعِيهَا .

جَلَسَتْ « أُوسَا » تَنْفُضُ التُّرَابَ عَنِ الأَعْشَابِ الَّتِى جَفَّتْ ، وَغَفَلَتْ مِنْ جَدِيد ، وَإِذَا بِهَا تَحْلُمُ بِالْفَرَاشَةِ الصَّفْرَاءِ وَهِىَ تَطِيرُ فِى ضَوْءِ الشَّمْسِ ، وَكَأَنَّمَا يَنْبَعِثُ مِنْ دَاخِلِهَا ، وَكَأَنَّهَا تَحْمِلُهُ مَعَهَا أَيْنَمَا تَوَجَّهَتْ ، وَاقْتَرَبَتْ مِنْهَا الْفَرَاشَةُ الصَّفْرَاءُ ؛ تُرِيدُ أَنْ تَسْأَلَهَا عَنْ شَىْءٍ، أَوْ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ لَهَا بَعْضَ كَلِمَاتٍ. وَفِى صَوْتٍ رَقِيقٍ نَاعِمٍ ، هَمَسَتِ الْفَرَاشَةُ : تَعَالَى وَرَائِى يَا « أُوسَا » .

- إِلَى أَيْنَ ؟

- سَتَعْرِفِينَ .

مَضَتِ الْفَرَاشَةُ الصَّفْرَاءُ ، وَ « أُوسَا » مِنْ وَرَائِهَا ، تَتَعَقَّبُهَا . طَارَتْ فِى طُرُقٍ ضَيِّقَةٍ مُظْلِمَةٍ ، وَهِىَ مِنْ خَلْفِهَا



كَأَنَّهَا تُطَارِدُهَا . وَفَجْأَةً أَحَسَّتْ « أُوسَا » بِشَىْءٍ يَجْذِبُهَا مِنْ كَتِفَيْهَا ، وَانْتَابَهَا فَزَعٌ شَدِيدٌ، فَتَلَفَّتَتْ إِلَى الْوَرَاءِ وَإِذَا بِغُصْنِ شَجَرَةٍ أَمَامَهَا ، وَفَجْأَةً وَجَدَتْ أَنَّهَا قَدْ فَقَدَتِ الْفَرَاشَةَ الصَّفْرَاءَ ؛ إِذْ اخْتَفَتْ، وَلَمْ تَعْرِفِ الطَّرِيقَ الَّذِى سَلَكَتْهُ، وَضَاعَ مِنْهَا الضَّوْءُ الَّذِى كَانَتْ تَسْتَدِلُّ بِهِ ، وَتَجْرِى عَلَى هُدَاهُ، فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلا أَنْ قَعَدَتْ عَلَى الأَرْضِ وَعَقَدَتْ يَدَيْهَا حَوْلَ رُكْبَتَيْهَا ، وَبَدَأَتْ تَبْكِى . وَبَعْدَ قَلِيلٍ رَأَتْ نَفْسَهَا تَرْقُدُ حَيْثُ هِىَ ، عَلَى التُّرَابِ وَأَوْرَاقِ الشَّجَرِ، وَأَحَسَّتْ بِهِ دَافِئًا مُرِيحًا لَطِيفًا ، ثُمَّ شَعَرَتْ أَنَّ شَيْئًا مَا فِى دَاخِلِهَا يَتَغَيَّرُ ، وَتَسَاءَلَتْ :

- مَاذَا يَحْدُثُ لِى ؟

وَجَدَتْ أَنَّ نُقْطَةً مُضِيئَةً قَدْ بَدَأَتْ تَظْهَرُ فِى دَاخِلِهَا ، وَأَنَّ هَذِهِ النُّقْطَةَ تَكْبُرُ وَتَكْبُرُ ، كَأَنَّهَا شَمْسٌ صَغِيرَةٌ ، مِثْلُ تِلْكَ الَّتِى كَانَتْ فِى قَلْبِ الْفَرَاشَةِ الصَّفْرَاءِ ، وَأَحَسَّتْ بِنَفْسِهَا خَفِيفَةً لَطِيفَةً قَادِرَةً عَلَى أَنْ تَطِيرَ فِى الْهَوَاءِ ، وَهِىَ تُحَرِّكُ ذِرَاعَيْهَا ، كَأَنَّمَا هُمَا جَنَاحَانِ رَقِيقَانِ ، وَارْتَفَعَتْ إِلَى أَعْلَى . . إِلَى مَا فَوْقَ الأَشْجَارِ الْبَاسِقَةِ الْعَالِيَةِ ، وَلاحَظَتْ أَثْنَاءَ طَيَرَانِهَا أَنَّ اللَّيْلَ قَدْ حَلَّ ، لَكِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ مُظْلِمَةً جِدا، حَيْثُ كَانَتْ « أُوسَا » تَتَصَوَّرُ أَوْ تَتَخَيَّلُ. رَأَتْ نُوراً مُتَنَاثِراً هُنَا وَهُنَاكَ ، وَتَسَلَّلَ بَعْضُ الأَمَانِ وَالاطْمِئْنَانِ إِلَى نَفْسِهَا ، وَاسْتَمَرَّتْ تَطِيرُ ، مُحَلِّقَةً .

وَعِنْدَمَا فَتَّحَتْ عَيْنَيْهَا ، وَجَدَتْ نَفْسَهَا فِى فِرَاشِ الْعَجُوزِ .

هَلْ نَقَلَهَا إِلَيهِ مَرَّةً أُخْرَى أَمْ تُرَاهَا لَمْ تُغَادِرْهُ ؟

أَيْنَ الْحُلْمُ ؟ وَأَيْـنَ الْحَقِيقَةُ فِى كُلِّ مَـا رَأَتْهُ ؟ هَلْ هُنَاكَ - حَقًا - فَـرَاشَةٌ صَفْرَاءُ أَمْ أَنَّ الأَمْرَ مُجَرَّدُ خَيَالٍ ؟ وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ قَدْ طَارَتْ فِعْلا أَمْ أَنَّ الحِكَايَةَ حُلْمٌ طَافَ بِرَأْسِهَا ؟

تَطَلَّعَتْ هُنَا وَهُنَاكَ بَاحِثَةً عَنِ الْعَجُوزِ .

مَا أَكْثَرَ مَا تَنَامُ خِلالَ أَيَّامِ الصَّيْفِ الْحَارِّ نَهَارًا ، لِمَاذَا لا تَدَّخِرُ النَّوْمَ إِلَى اللَّيْلِ ؛ لِتَهْرُبَ مِنْ ظَلامِهِ وَمِنَ الْخَوْفِ خِلالَهُ ؟

لَمَحَتْ « أُوسَا » الْعَجُوزَ نَشِيطًا ، مَازَالَ يُوَاصِلُ عَمَلَهُ فِى جِدٍّ وَاجْتِهَادٍ ، وَأَحَسَّتْ أَنَّهُ إِنْسَانٌ عَظِيمٌ وَطَيِّبٌ ، بَلْ رَائِعٌ ؛ فَغَادَرَتْ مَكَانَهَا إِلَيْهِ .

سَأَلَهَا : هَلْ رَأَيْتِ أَحْلامًا جَمِيلَةً خِلالَ نَوْمِكِ ؟

- نَعَمْ

وَحَـكَتْ لَهُ كُلَّ مَـا حَلَمَتْ بِهِ ، وَحَدَّثَتْـهُ عَنِ الْفَرَاشَةِ الصَّفْرَاءِ ، وَكَـيْفَ تَبِعَتْهَـا ، ثُمَّ فَقَدَتْ أَثَرَهَا ، وَرَوَتْ لَهُ كَيْفَ أَنَّ دَاخِلَهَا قَدْ أَصْبَحَ مُضِيئًا ، وَأَنَّهَا تَمَكَّنَتْ مِنْ أَنْ تَطِيرَ ، وَأَضَافَتْ :

- قُلْتَ لِى : إِنِّى سَأَكُونُ ذَاتَ يَوْمٍ - أَقْصِدُ ذَاتَ لَيْلَةٍ - شُجَاعَةً .

- نَعَمْ .

- لَقَدْ حَدَثَ .

كَانَ الْعَجُوزُ يَنْظُرُ إِلَى « أُوسَا » وَهِىَ تَسْتَعِدُّ لِتُغَادِرَ الْمَكَانَ إِلَى بَيْتِهَا ، فَقَالَ لَهَا :

- سَوْفَ يَأْتِى اللَّيْلُ وَأَنْتِ عَلَى الطَّرِيقِ .

- فَلْيَأْتِ . . لَسْتُ أَخْشَاهُ .

- وَالظَّلامُ وَالأَشْبَاحُ ؟

- إِنَّنِى كُنْتُ أَخَافُ حِينَ لا يَكُونُ هُنَاكَ نُورٌ مِنْ حَوْلِى ، وَلَكِنَّنِى أَشْعُرُ الآنَ أَنَّ هُنَاكَ نُورًا بِدَاخِلِى .

هَتَفَ : مَاذَا ؟

- قُلْتُ لَكَ : إِنَّ شَمْسًا نَبَتَتْ بِقَلْبِى ، وَإِنَّ نُورًا يَشِعُّ مِنْهَا ، لايُضِىءُ مَا بِدَاخِلِى فَحَسْبُ ، بَلْ وَالطَّرِيقَ أَمَامِى ، وَيُبَدِّدُ الظَّلامَ فِيمَا حَوْلِى .

- هَذَا شَىْءٌ رَائِعٌ يَا « أُوسَا » ، أَنْتِ وَأَنَا الآنَ أَصْبَحْنَا أَصْدِقَاءَ ، وَأَنْتِ قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تَزُورِينِى حَتَّى فِى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ .

- لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَسَوْفَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ مِـنْ ضَـوْءِ النُّجُومِ وَهِىَ تَنْعَكِسُ عَلَى زُجَاجَاتِ الشَّجَرَةِ

وَتَمْلَؤُهَا بِالنُّورِ .

- سَأَنْتَظِرُكِ يَا « أُوسَا » .

لَوَّحَتْ « أُوسَا » بِيَدِهَا مُوَدِّعَةً الرَّجُلَ الْعَجُوزَ ، وَمَضَتْ عَلَى الطَّرِيقِ شُجَاعَةً ثَابِتَةَ الْخُطَا ، لا تَخَافُ أَحَدًا ، وَلا تَخْشَى شَيْئًا . وَكَانَتْ عَيْنَاهَا تَخْتَرِقَانِ الظَّلامَ ، وَالنُّورُ يُطِلُّ مِنْهُمَا ، فَتَخْشَاهَا الْحَيَوَانَاتُ ، وَتَتَفَادَاهَا ، وَتُخْلِى لَهَا الطَّرِيقَ . وَكَانَ صَوْتُهَا يَرْتَفِعُ - أَحْيَانًا - بِالْغِنَاءِ ، فَيُؤْنِسُهَا ، وَيُفْرِحُهَا وَيُبْهِجُهَا ، وَيَزِيدُهَا شَجَاعَةً عَلَى شَجَاعَتِهَا . وَكَانَتْ أَغْصَانُ الشَّجَرِ تَنْحَنِى لَهَا أَثْنَاءَ سَيْرِهَا ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهَا كَانَ يَنْحَنِى ؛ تَحِيَّةً وَتَقْدِيرًا .

وَعِنْدَمَا وَصَلَتْ إِلَى الْبَيْتِ وَجَدَتْ أُمَّهَا فِى انْتِظَارِهَا وَهِىَ قَلِقَةٌ ، وَمَا إِنْ رَأَتْهَا حَتَّى صَاحَتْ فِيهَا :

- أَيْنَ كُنْتِ كُلَّ هَذَا الْوَقْتِ إِلَى أَنْ حَلَّ الظَّلامُ ؟

- كُنْتُ أُبَدِّدُهُ وَأَهْزِمُهُ ، وَأُسَاعِدُ الرَّجُلَ الْعَجُوزَ عَلَى تَجْفِيفِ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ ، وَأُطَارِدُ الْفَرَاشَةَ الصَّفْرَاءَ ؛ بَحْثًا عَنِ الطَّرِيقِ .

- وَمَاذَا عَنْ خَوْفِكِ مِنَ الظَّلامِ ؟

- الظَّلامُ ؟ أَىُّ شَىْءٍ هُوَ ؟ وَمَا الَّذِى يُخِيفُ فِيهِ ؟

- كُنْتِ تَرْتَعِدِينَ مِنْهُ ؟

- كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ الشَّمْسُ بِدَاخِلِى وَقَبْلَ أَنْ يُشْرِقَ النُّورُ فِى صَدْرِى . لَقَدْ تَعِبْتُ ، وَأُرِيدُ أَنْ أَرْقُدَ فِى فِرَاشِى .

- أَلَنْ تَقْعُدِى وَتَعْقِدِى ذِرَاعَيْكِ حَوْلَ رُكْبَتَيْكِ ، وَتَنَامِى حَيْثُ أَنْتِ ، وَأَحْمِلُكِ إِلَى سَرِيرِكِ ؟

- لا . . لا ، سَوْفَ أَمْضِى إِلَيْهِ هَادِئَةً وَفِى عُمْقٍ وَأَنَا مُلْتَحِفَةٌ بِالظَّلامِ !

فهرس

رقم الإيداع ٣٠٥٩ / ٩٨ الترقيم الدولى: ISBN : 977 - 261 - 602 - 5



سفير ٥ ش جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة - ص.ب: ٤٢٥ الدقى ت: ٣٣٧٩٧٥٢ - ٣٣٥٣٧١١ - ٣٣٥٣٧١٢ - ٣٤٩٤١٣٩ فاكس: ٣٤٨٠٢٩٩